الفصل الأول

الوحدة مُوحشة, والخواء أيضًا, يقتلاني بمعاونة رفيقهما السَّمج, هذا المسمى بالزَّمن, عد دقائقه البطيئة يضجرني حد الموت, يستنزف صبري الشَّحيح من حاله, الشَّفيف الرَّهيف مثل كياني المتراقص! ليت صاحبي ما لفظني من أحشائه الباردة, وتركني بمفردي في هذا الخلاء الفسيح, هذا الخواء, هذا الضَّجر! منذ لحظتها وبدخيلتي يضج تساؤل: "هل ثمَّة فائدة تُرجى من وجودي في هذا القصر مترامي الأطراف, ذو الحجرات الخاوية مثلي, المتراصة مثل تفاصيل الزَّمن الرَّتيب؟!"

دائمًا ما تُرجعني الذَّاكرة إلى لحظة التَّكوين الأولى. لحظة انطلاق الطَّلق النَّاري الغادر من الفوهة, وانسلاخي المؤلم عن جسده المسجي, وصرخته المروعة تودع الحياة, تتماس مع صرخة المدوية تستقبل الحياة. جسده يهمد, وجسدي ينتفض, ليغادرني إلى الأبد, وأغادره إلى الأبد.

السَّائل القاني هو ما أرعبني في البدء. لزج, منبثق, مثل نبع صغير في موضع الجرح النَّافذ في القلب, ومنه طللت برأسي أتلوى مثل تهويمات الدُّخان, مُتحررًا من قمقم الجسد.

أصابني الغثيان من بشاعة المنظر, كادت أمعائي تنفلت من فمي. أضحكتني الفكرة حد البكاء؛ فأنا خاوي حتى من نفسي, هلامي لا أمت للحقيقة بصلة, عالق على ذلك الحد الفاصل بين الوجود والعدم, تائه بين الحقيقة والوهم, فلا أنا هنا ولا أنا هناك. ليتني ظللت روحًا رهينة الجسد, معلومة الهوية رغم القيد, وليس هذا الوضع المقيت.

ولا أدري كم مر من وقت, وأنا متشنج بجوار جسده المسجي, السَّابح في بركة دماء, فأبدو كجثة أنا الآخر, لا يفرقني عنه سوى ارتعادات عنيفة تجتاحني, لا

أعرف كنتها تمامًا, ربما هي الخوف من العالم الجديد, صدمة الحياة الأولى. حياة بشعة تكشر عن أنيابها لي, أول ما ابتدرني منها هو القتل والغدر, والدِّماء التي استقبلتني من الثُّقب النَّافذ في القلب, وسكرات وداع صاحبي, ونظرات عينيه الملتاعة المتألمة!

وأنا الهلامي مثل قطعة "جلي", وحيدة مسكينة, ترتعب من ملعقة في طريقها لتهبر جوفها؛ بُغية إطعام فمًا مفغورًا. رخو مثل حيوان الإسفنج, يسكن أعماق المحيط, يندس بين نتوءات الصُّخور والشُّعب المرجانية, يرهب أن تراه عين. طيع مثل قالب صلصال بين يدي صانع ماهر يشكله مرة شيطانًا وأخرى ملاك. مراوغ مثل سحائب دُخان في ليلة أُنس وعربدة.

ولا أملك جلدًا ثخينًا كما البشر فيحتمل, ولا مادية كماديتهم قد تقيني قسوة القاتل المتوحش, هذا العالم, هذه الحياة.

أنا الرَّقيق الرَّهيف. أنا المضطرب المرتجف. أنا الَّذي كان آمنًا بالدَّاخل, غير معنيًا بشيء. لم يكن أكثر من التَّفسُّح في الأحلام بين الحين والآخر ما أفعل, أيام كنت أكثر شفافية من حالتي هذي, أيام كنت روحًا تسكن الجسد, وليس شبحًا عالقًا بين الرَّوح والجسد. كنت أقبض على حريتي وأنطلق إلى العالم بنظرة مشرقة غير هذه السَّوداوية التي تحتلني الآن. عالم مغاير غير هذا الملطخ بالدَّم, ناعم ليتلاءم مع رهافة الأرواح, لتجوبه هانئة مطمئنة. تدخل من بواباته السِّحرية العديدة ما تشاء, فيعن لها أن تلبي رغبة مكبوتة للجسد الغارق في العجز, فتركب "اللِّيموزين" وتصاحب الحسناوات. تَخطُر من بوابة السَّعادة إلى عالم رحب تعوض فقدها ووحشتها لما لا تجده في دنيا الواقع, وقد يدعوها النَّزق أن تأخذ جرعة من الحزن الكامن خلف بوابة الكوابيس, وكأنَّ بؤس الأرض لا يكفي فجاءت تتزود بالمزيد. تفعل ما يحلو لها بإرادة حرة طالما كوة الحُلم مشرعة, ريثما يتململ الجسد المسجي على فُرش النَّوم, يطلب تلك المنفلتة المتسكعة هنا وهناك, يُرعبه أن يكون ملك الموت على رأسه يحمل جرابه العتيق يؤدي المهمة الأبدية.

صعدت القمر مرة, وجلست على قمم جباله الشَّاهقات. وشددت الرِّحال إلى الشَّمس أخرى, أستدفئ بوهجها من صقيع الأرض. وطيف ذكرى يداعبني

obeikandi.com

لصيد على حافة دجلة، واستحمام في شلالات نياجرا، وسبحت في النِّيل والكاريبي والفرات، وسائحًا بين شوارع دمشق والقاهرة وبغداد.

أذهب وأعود، روح خفيفة تنفلت من الجسد الهاجع لسطوة الحُلم. ذهابًا إيابًا كما بندول.

وكم حاولت أن أعود إلى جسده المسجي، أندس في أنسجته وخلاياه، أسبح في شرايينه وأوردته، أطرق قلبه المستكين هناك عله ينتفض ويخلُص بي من حالتي هذي- بيد أنَّه بات مصمتًا أمام كل محاولة ولوج. ولم يكن عصيًا أن أتيقن؛ أنَّه لم يعد هذا الشَّخص الَّذي كنت أغادره من كوة الحُلم، امرح قليلًا وأعود. صار قتيلًا، سُدت كل منافذه إلى الأبد. وقد انسلخت عنه وسطي الحالة، روح تَعْلُق بها مادية شفيفة، شبح عالق بين السَّماء والأرض.

ويمر الوقت رتيبًا، وأنا ماكث على رأسه أرمقه، متسمِّرًا، غير مدرك لشيء، خواء بداخله خواء.

وانتصبت، يجتاحني إعصار: ريح تعوي وتعصف، سفيف رمال، ظلام يحلُك، برق يقصف، رعد يدوي، حمم تتصاعد، أفكار تلهث، مشاعر تضطرم. صممت أذني، صرخت بصوت لم يغادرني: "لم أنا هنا؟! لم لا أنطلق؟! أذهب! ما يكبلني بهذه الأرض، هذا الطِّين؟!" قدماي مغروزتان، جسدي ثقيل، والسَّماء بعيدة، بعيدة، والقمر مختنق من غيمات سود، أمد يدي بلهفة مشتاق، علني أزيح هذا السَّواد، وأروي عطشي. يداي قصيرتان، والمدى بعيد!

تملأني رغبة بالبكاء، أعتصر عيناي، لا دموع، لا شيء غير الخواء، يلطمني اكتشاف أنَّ الأشباح لا يبكون. أبكي على اكتشافي. لا دموع.

وسقطت، وجعلت التقط أنفاسي، أهدأ، أفكر أنَّ الخلاص في الهدوء والتَّفكير، أن أستدعي الذَّاكرة، أمتطيها، أرجع إلى نقطة الصِّفر، لحظة البدء والتَّكوين، يحدوني سؤال واحد يملأني، سؤال بسيط: "لماذا أنا هنا؟!" أتذكر التَّفاصيل، أدق التَّفاصيل، الإجابة كامنة بالتَّأكيد هناك، بين الطَّيات، تحتاج فقط ربما لعين نافذة.

أتذكر. أتذكر.

وتنقشع غمامات الرَّهبة رويدًا، أشعر بذهني ينجلي، أستدعي لحظات تخلُّقي

الأولى، في تلك اللَّحظة الفاصلة بين مغادرته إلى عالم الأموات وولوجي لعالم البشر. وها أنا أتذكر. أتذكر. اخترقتني كلمة وحيدة متكررة، لُفت بفيض من التَّضرع العميق: "ابحث.. ابحث.. ابحث" قد أسميها لحظة التَّماس؛ لكون التَّخاطر حدث فيها بيننا، وأحيانًا أفكر أنَّ الأقرب للصواب أن تُسمى لحظة الانسلاخ، ففيها انسلخت عنه وتحررت من جُل بشريته وماديته، ومرات يروق لي أن أدعوها لحظة الانعتاق، ولكنه للأسف انعتاق لم يكتمل، لقد انعتقت شبحًا، وكان يحق لي أن أنعتق روحًا.

حتمًا تخاطره ذاك، الملفوف بالتَّضرع والرَّجاء، هو ما حولني إلى هلاميتي هذي، إلى هذه الحالة الوسطية بين الوجود واللَّاوجود.

لم ينطق فمه بالثَّأر، صرخت به عيناه، رغبة عنيفة اخترقتني ونفذت إلى ذهني، طلب ما، وصية ما! وماذا تكون الرَّغبة الأخيرة، لقتيل في لحظة المغادرة، غير المطالبة بالثَّأر من قاتله؟! هو الثَّأر لا غيره، هي المطالبة بالقصاص ما كان ينشد، وما رغب أن يقول، غير أنَّ استحكام قبضة الموت القاسية عليه لم تسعفه! يتحتم علي أن أعترف بمهمتي، ألا أتقاعس عن واجبي، أن أكون صريحًا أمام نفسي، هذا إن كان لي نفس!

حسنًا؛ ما دُمت موجودًا على هذه الأرض، فحتمًا أمتلك نفسًا ما، وإن كانت هلامية بندوليه متأرجحة بين عالمين، فلا يهم.

"أنا هنا بُغية القصاص" فلأرددها مليًا كي لا أنسى، أو كي لا أتناسى مهمتي. نعم أنا هنا بُغية القصاص من قاتلي، وما وجدت إلا لذاك. ثمَّة مهمة وحيدة لي في هذه الحياة، إن أديتها؛ انعتقت أنا الآخر إلى عالمي، إلى حيث الانتظار سكينتي وملاذي.

أنا أنتظر مني الكثير، أقصد من كان أنا ينتظر مني الكثير، أقصد من كنت هو ينتظر مني الكثير، أقصد... إني مرتبك، أرتعد، أرتجف، تتراقص جزيئاتي الواهية مثل قشة تتلاعب بها ريح عابث، فكيف لمثلي؛ هلامي، خاوي، يضجره الوقت، ويخيفه ضوء النَّهار أن يزهق روحًا، لا أظنني حتى أصلح لبعث الرُّعب. إني مجرد شبح وليد يحبو أولى خطواته في الحياة. أولى اكتشافاته أنَّ الشَّمس والبشر عدواه، والظَّلام صديقه الأوحد. بغيتي الوحيدة في عالمي الجديد

هي إحكام إسدال السَّتائر على ضوء النَّهار والبشر, لتلفني العتمة ويغشاني الهدوء.

"فأنى لمثلي أن ينتقم؟!"

وطوال أيام, وأنا رابض أكتم أنفاسي, في جوف القبو المعتم بأسفل القصر, تنتابني رعدات من خوف, أنتقل من ظلمة ركن قصي إلى آخر, أتقي أضواء الرِّجال ذوي الملابس البيضاء والقبعات ذات الحواف السَّوداء, أثناء بحثهم عن طرف خيط, قد يقودهم إلى الجاني الَّذي قتلني.

كم أبدو رعديدًا بكم هذا الهلع الَّذي يعتريني, من مجرد همس يفاجئني, رغم كوني متماهيًا مع الظَّلام, لا يظهر لي أثر. تارة أتمثل في صورة خفاش يتعلق بأطرافه الدَّقيقة في أركان السَّقف, أدفس رأسي بين أجنحتي الجلدية, وأخرى ثعبان مندس بين كراكيب القبو, أو بركة ماء راكدة في الحديقة ليلًا, أو طائر ليلي مستتر بين أغصان الأشجار, أو حتى فأر مذعور يهرب من تحت أقدام ذوي القباعات إذا ما اخترقوا المكان. كانت أسوأ ليالي حياتي: هي اللَّيالي التي استوطن فيها الرِّجال القصر! بدا وكأنَّهم لن يذهبوا, بتصرفاتهم الغير متوقعة, وحركاتهم الدَّءوبة, وأنا ألهث من هنا لهناك, أنتقل من هيئة لأخرى! وكم كانت الخيبة والحيرة التي تعلو وجوههم تنخر في كياني المتهافت, وتغيض لها روحي! وأنا الخاسر الأوحد؛ فأنا الَّذي خسر سكينته طوال أيام وجودهم, ولا هم أضاءوا لي قبس ضوء, أنار شيئًا من عتمة حياتي.

مهمتي ثقيلة بلا ريب, عصية بلا أدنى مكابرة. فكيف لشبح صفر الذَّاكرة, لا يتذكر مجرد اسم صاحبه, أن يبحث في أمر شائك كهذا الأمر, وقد فشل هؤلاء الخبراء العتاة في الإمساك ببارقة ضوء, قد ينطلقون منها إلى أفق في البحث أرحب!

لقد ضاقت بهم السُّبل, وانقطع طرف الخيط, وفرغت جعبتهم, وأراهم ينهون أعمالهم, يجمعون أشيائهم للمغادرة, تعلوهم سحائب الخيبة, يجرجرون أذيال الفشل, وقد كنت أقترب قدر الإمكان, أرقبهم حذرًا, متخفيًا بين ثنايا الظَّلمة, مسترق السَّمع لأي نتيجة أو كلمة قد تفيدني في بحثي, الَّذي من المفترض أن أبدأ, بمجرد أن يرحلوا.

سمعت من يبدو أنَّه كبيرهم يقول: أنَّ الطَّلق جاء من خارج القصر, ارتقى القاتل شجرة الكافور الكبيرة هناك, ليواجه الكرسي الأثير للمجني عليه في الصَّالة, وأنَّ مكانه بين الأغصان جلي, لا تخطئه عين, حتى أنَّه أخذ يشير إليه مرارًا, وأنَّهم وجدوا هناك, بأعلى سطح بيت الجنايني القابع أسفل الشَّجرة, آثارًا لأعقاب سجائر "مارلبورو", والطَّلقة الفارغة التي أصابتني في مقتل.

وأردف الرَّجل: أنَّه ما دام في الأمر قناص محترف, استطاع بدقة أن يقنص قلبًا من هذه المسافة البعيدة, وهذه الدِّقة المتناهية, فللأمر أبعاد. وأومأ الحضور برؤوسهم موافقين مذعنين, وانصرفوا, وقد بدا جليًا أنَّ الأمر قد انتهى برمته عند هذا الحد! أخذوا الجثة معهم, وتركوا القصر في عهدة خادم عجوز يدعى "ياسين".

أهم ما علمت من هذه الضَّجة طوال أيام, كان حوارًا مقتضبًا بين ذوي القباعات: أنَّ اسمي "فايز", قالها الرَّجل الكبير مرة وحيدة في جملة عابرة, وهو يصفني بالمجني عليه, وأنَّه ثمَّة قريب لي هو الوريث الوحيد لهذه الثَّروة الطَّائلة التي تَركت, موجود بالخارج لظروف يفرضها العمل, وأنَّ اتصالًا تم بين الوريث و"ياسين", كُلف "ياسين" من خلاله بحراسة القصر, ريثما يفرغ الوريث من أشغاله العديدة بالخارج. كما علمت أنَّ الخزينة الكبيرة الموجودة بالمكتبة وجدت مفتوحة, فارغة من محتواها, وسمعت الرَّجل الكبير يسأل "ياسين", مُحدقًا في تعبيرات وجهه يقرأها: إذا ما كان "فايز" يحتفظ بأموال في الخزينة, فأجاب "ياسين", هاربًا بعينيه بعيدًا عن مجال النَّظرات النَّافذة المستريبة: "الخزينة لا تخلو من نقود, وأيضًا مستندات "فايز" المهمة" فتحفز الرَّجل, يُتبع السُّؤال بسؤال: "وهل تستحق أموال الخزينة أن يتربص به أحدهم لأيام ويقنصه أثناء تغيبك من أجل السَّرقة وحدها" فأجاب "ياسين": بأنَّ سيده "فايز", في الآونة الأخيرة, كان لا يذهب إلى البنك نتيجة ظروفه النَّفسية السَّيئة, ما ترتب عليه تكدس الأموال بالخزينة جراء ذلك, وأنَّه عندما عاد من قضاء بعض الأمور بسكنه البعيد وجد "فايز" مضرجًا في دماءه والخزينة فارغة من النِّقود, والمستندات لم يكن لها أثر.

غير هذا لم أعلم, وهذا يستدعي خاطرًا يلح علي منذ لحظة وجودي بالحياة:

"هل كل الأشباح مُعدمي الذَّاكرة مثلي, أم أنني شبح متفرد في كل شيء, تكالبت عليه مصائب الدُّنيا؟!"

"من أنا؟! أو بالأحرى من هو؟! طيب هو أم شرير؟! جاني أم مجني عليه؟! هل يستحق هذه المكابدة التي أنا واقع فيها؟! أم أنني أعيش مسرحية هزلية, بلا متفرجين قد أفلح في اقتناص ضحكة بريئة من أفواههم, تكون عوضًا عن مأساتي هذي!"

ولا عمل لي سوى التَّسكع بين الأروقة, وفي الحجرات المغلقة, مسدلًا السَّتائر, أحيا في عتمة كثيفة, يغلفها الهدوء, ويجللها الخوف لسواي من البشر المتطفلين. ولا بشر, فلم يدخل القصر, منذ مغادرة الرِّجال ذوي القباعات سوى الخادم "ياسين", أتى مرة, يتفقد القصر. كان مرتعبًا, يتلفت كثيرًا, فعزيت ذلك؛ لكون المكان حدثت به جريمة قتل, وسرعان ما ذهب كما أتى, أسمع صوته كثيرًا في الحديقة, يروي الزَّرع, ويتفقد المكان, ولكنه لم يدخل أبدًا بعدها.

والقصر فسيح, مترامي الأركان, بحلول الظُّلمة, ومع هذا السُّكون الشَّبيه بالموات, يصلح نزلًا لهوام الأشباح. على جدرانه سيوف عتيقة مطهمة الجراب والمقبض, وأطباق خزفية ذات رسومات بديعة, وبنادق صيد مختلفة الأشكال والأحجام, وصور قديمة لرجال معقوفي الشَّوارب, يجمعهم شبه كبير مع "فايز" الَّذي أتمثل صورته, ونساء فاتنات جميلات تظهر عليهنَّ النِّعمة والتَّرف؛ ببشرتهنَّ البيضاء المشوبة بحمرة, وعيونهنَّ الحالمة, وابتسامتهنَّ العذبة الودودة. كان جليًا أنَّ صاحبي ذو أصول أرستقراطية متغلغلة في القدم, وأنَّ عائلته ذات ثراء وعز.

وصادفتني صورة, هي أكثر ما لفتني في هذا الزَّخم من صور الرِّجال معقوفي الشَّوارب. الصَّورة فريدة, غارقة في القدم, مترئة الأطراف, لفارس عاري الصَّدر, عريض المنكبين, مفتول الذِّراعين, ممشوق القوام على حصان شاهق البياض, يُشهر سيفًا, في عينيه نافذة النَّظر تحدي وقوة.

فارس تركي من الوهلة الأولى, وكأنِّي أعرفه هذا المتباهي على صهوة حصانه, نعم أعرفه, هذا "طوسون"؛ رب هذا الخلق من الأتراك معقوفي الشَّوارب,

وجد "فايز"، جدي أنا.

***

"طوسون" منوط به المراقبة من أعلى الأسوار الشَّاهقة بحصن يافا. اتكئ "طوسون" على حافة السُّور يشاهد الأفق الممتد، حيث السَّماء ترشف البحر، تروي نهم العشق. فورة رجولته وتأجج شهوته للنساء تجعله يحيد بكل شيء إلى نواحي جنسية. منذ وقفته الأولى على هذه الأسوار، من نحو عام مضى، يرى السَّماء عاشق مهووس بسحر البحر. نعومته، غنجه، سحره، الخطر الكامن بين طيات أمواجه الرَّقيقة، كلها أشياء جعلته يرى البحر أنثى جميلة، عربيدة، خُلقت للعشق. كما يُعجبه اعتداد السَّماء رغم شغف العشق، تميل تلثم البحر من علٍ ولا تتهافت تنزل إليه.

والوقت عصرًا، وتتابع نسمات الهواء في اندفاعها الرَّقيق إلى وجهه أحمر اللَّون وشاربه الغليظ المعقوف، تضافر مع بطنه الممتلئ بطعام الغداء المكون من شرائح سمك البحر اللَّذيذ والأرز المطهو جيدًا، ما جعل طائر النُّعاس يزعق فيه، يناديه؛ فتغفو عيناه تلبي. ولهنيهات يعود إلى الأستانة مهد الطُّفولة والشَّباب.

"طوسون" يتيم الأبوين، رباه أحد أعمامه بمدينة الأستانة بتركيا. أُمّي، لم يحظ بقدر كاف من التَّعليم يمكنه من إجادة القراءة والكتابة، غير أنَّ ذكائه الفطري كان كبيرًا، ما كان مصدر فخر له، ومعينًا عظيمًا في طريق الحياة الشَّاقة التي أرادها، ولم يدخر جهدًا في السَّعي إليها. "طوسون" من تلك الطَّائفة المعنية بتغيير الأقدار، غرس فيه أبوه هذه النَّبتة قبلما يفارقه وهو ابن العاشرة، راحلًا إلى مثواه الأخير بالدَّار الآخرة، لاحقًا بزوجته (أم "طوسون") التي سبقته بعامين.

الأب، الفلاح الفقير، لم يكن يفتر يهمس لولده؛ بأن يُغيّر من قدره إلى آخر أكثر إشراقًا، وألا يترك نفسه في مهب أنواء الحياة، تتلاعب به أني شاءت، فإن فعل ورضخ لها وانساق؛ فهي أخذه غير معطية، مُجرِّدة غير مانحة. وآخر ما قاله لولده بعينين دامعتين فيما يجذبه إلى صدره بارز الضُّلوع؛ مغبة مرض السُّل الَّذي لازمه منذ سنين: "الحياة لا تمنح سوى البؤس لمن يُسلم لها القياد،

ويرتكن لعطاياها الشَّحيحة".

وقال:

"سبيل الفرسان الحق: أن يرفعوا "حسام" المغامرة في وجه الثَّبات والجمود والأمر الواقع".

وقال:

"على الفارس أن يقنُص بغيته بقلب شجاع, غير واجف ولا مكترث, حينها فقط, يستطيع أن يدحر جحافل الحزن, فلا يتسرب إلى بؤرة القلب"

كثيرًا ما فكر "طوسون" أنَّ أباه كان مُلهمًا بالحكمة, ينطق بها لسانه, وكأنَّها تأتيه من وحي يتنزل عليه من السَّماء السَّابعة, وكان يظن أنَّ المرض وقلة الحيلة هو ما عرى له الحياة وكشف ما خفي من حقيقة, وأنَّه لو قُدر لأبيه حياةً جديدة؛ لركب فرسًا جموحًا واستل سيفًا وجاس في نواحي الأرض ومناكبها مغامرةً وركضًا ولهوًا وعبسًا, وما ارتكن للانتظار والسَّكينة في الأستانة يزرع ويقلع, مكتفيًا بمشاهدة الحياة دونما حراك يذكر, تمر به الأيام والشُّهور والسِّنين ولا يمر بهم, ولا يَجِد جديدًا سوى تفاقم المرض. ومن أجل هذه الرَّغبات المكبوتة, المعربدة في حنايا الرَّجل البائس المريض المُعدم, أراد لابنه أن يحقق ما لم تسعفه به الصِّحة والزَّمن, أن يعيش "طوسون" الحياة التي لم تُقدر له أن يعشيها, ويتنفس من هواء متجدد غير هذا العطن الفاسد الَّذي أزكمه وأقض مضجعه.

وعلى طريق العم التحق "طوسون" بالجيش العثماني, وانضم إلى الجند المرابض بحصن يافا, المدينة الفلسطينية الواقعة على البحر المتوسط, كان ذلك عام تسع وتسعون وألف وسبعمائة, أي بعد احتلال مصر بنحو عام من قبل الفرنسيين بقيادة "نابليون بونابرت", وجلاء المماليك والأتراك عنها.

واستمرأ "طوسون" حياة الجندية, وشعر بنفسه فيها, وأنَّ هذه الذِّراع الشَّابة العفية ما خُلقت إلا للضرب بالسَّيف والطَّعن بالرُّمح والرَّشق بالنِّشاب, وفي وقت وجيز تعلم كافة أنواع القتال وبرع فيها جميعًا. وكان متأكدًا في نفسه, أنَّ وقوفه في هذا الموقف, على الأسوار يراقب ويتابع, هو أمر زائل لا شك, وأنَّ مكانته كقائد حربي كبير ليست أبدًا بحلم بعيد المنال, ولكنَّها آتيه عمَّا قريب,

تلوح له ويكاد يراها.

ووصل لحاكم يافا العثماني أنباء عن تحرك الفرنسيين لدحر فلول العثمانيين وكسر شوكتهم في الشَّرق الأوسط: فهم لا يريدون ثكنات للجيش العثماني بالقريب؛ كي لا يجمعون أشتاتهم في جيشٍ قد يتحد مع الأسطول البريطاني المرابض في البحر المتوسط ينتظر الفرصة للظفر بمصر من بين براثنهم.

"الفرنسيس قادمون"

انتفض "طوسون" من غفوته على الصَّوت الَّذي أعقبه هرج ومرج عظيمين. فارس على حصان أشهب يضرب بحوافره حصى الشَّط بمحاذاة البحر: فيتناثر رزاز الماء تحت قوائم الحصان النَّاهب للأرض.

ولأربعة أيام, والفرنسيين بقيادة "نابليون بونابرت" يحاصرون المدينة. فرق العدد والعتاد بين الجيشين لا يسمح بالمواجهة؛ إلا من باب الحماقة, ما جعل حاكم المدينة يفكر في عقد صفقة ينجو من خلالها الجنود الأتراك وأهل المدينة من فتك الفرنسيين المدججين بالسِّلاح, في مقابل التَّسليم. ووافق نابليون ظاهرًا, ولكنَّه أعمل سلاحه في كل من يلوذون بالحصن بعدما دخل المدينة المستسلمة, فلم يفرق بين مدني أعزل وعسكري مدجج, فقتل ما يقرب من الأربعة آلاف نفس.

ونجح "طوسون" في الفرار من المذبحة, ولكنَّه أبى النُّكوص والرُّجوع إلى الأستانة تاركًا حلمه في الحياة العسكرية وحياة الفرسان, كما أنَّ حُلمه بدخول مصر أكبر من أن تجهضه مجرد هزيمة, هذه البلد التي غلَّه قنص الفرنسيين لها من يد بني جلدته, ومن أجل هذا رابض على حدودها بيافا متحينًا الفرصة للانتقام من عسكر الفرنسيين والظَّفر بأراضيها الطَّيبة وردها إلى حُكم السَّلطنة بالأستانة.

سحر الشَّرق يجده الشَّاب فواحًا في مصر, منذ تفتحت عيناه على الحياة وسمع حكايات عمه الَّذي رباه عن عراقة مصر الضَّاربة في عمق الزَّمن والتَّاريخ, وصفاء أهلها ونقاء سريرتهم, وعن عطر التَّاريخ يضمخ كل تفصيلة في كيانها الرَّحب الممتد شرقًا وغربًا, يشقها نيل فياض بالخير, ويحدها شمالًا

وشرقًا بحرين كبيرين عظيمين.

وقبع "طوسون" بمدينة عكا، المطلة هي الأخرى على ساحل البحر الأبيض المتوسط، ينتظر الفرصة السَّانحة لدخول مصر، يُدعم حلمه ويؤججه: قرب أفول نجم الفرنسيين في الشَّرق، وانكسار شوكتهم، والقلاقل التي تجتاح فرنسا؛ ما جعل "نابليون بونابرت" يترك حملته ويهرع ينازع السَّاسة في الصِّراع على حكم فرنسا، الدَّائر هناك على أشده.

وخرج الفرنسيون من مصر بعدها بعامين. عضو دخيل على جسد غيور آبي إلا أن يلفظه، مدحورين بطباع الشَّعب المصري الغير قابلة للتدجين، ومقاومة مستميتة تبلورت في ثورتين. وكان "طوسون" من الدَّاخلين برفقة العسكري "محمد علي باشا"، لتقع مصر في تلك المرحلة الحساسة بين شد وجذب من قوي ثلاث، كل منهم تريد أن تستأثر بالحكم والسَّيطرة؛ يأتي في المقدمة العثمانيون الذين يرون أنَّ مصر إرث قديم جاوز الثَّلاثة قرون تحت حكم السُّلطان العثماني، وأنَّها كانت لهم قبل دخول نابليون بونابرت وحملته واستيلائهم عليها. يتبعهم الانجليز ذوي الطُّموح الاستعماري والرَّغبة الشَّبقة في التَّوسع، والذين يطمعون في مصر لوقوعها بين بحرين مهمين، ولأنَّها تربط، بموقعها الاستراتيجي المهم والخطير، بين قارات العالم القديم: آسيا وأفريقيا وأوربا؛ ما يجعلها همزة وصل تخدم مستعمراتهم في الهند ومطامعهم الاستعمارية. وأخيرًا المماليك الذين كان لهم حكم مصر من قبل أن يسطو عليه العثمانيون منذ ما ينيف عن الثَّلاثة قرون.

وجاءت الإرادة الشَّعبية، بقيادة مشايخ الأزهر، لتضع العسكري "محمد علي باشا" واليًا على مصر، مطيحة بآمال الجميع في الحصول على الغنيمة، ولم يكن من الباب العالي بالأستانة مناص من إصدار فرمان يقر فيه بتولية "محمد علي باشا" حكم مصر مع خضوعه للسلطان العثماني ودفع "الجبية" السَّنوية.

قَرب الوالي الجديد: "محمد علي باشا" إليه المخلصين، وكان "طوسون" الشَّاب الشُّجاع الطَّموح من هذه الزُّمرة الأثيرة، وعهد إليهم بتكوين نواة قوية للجيش المصري، قوامه من المصريين الوطنين، وليس المرتزقة المبتورين، ممَّن

قدموا من شتى بقاع أوروبا؛ بُغية السَّلب والنَّهب, بلا عقيدة قتالية تذكر.

وتدرج "طوسون" سريعًا, كما كان يتمنى ويأمل, في مدارج الرُّتب العسكرية, غير أنَّ الرِّياح كثيرًا ما تأتي بما لا تشتهي السُّفن, فسرعان ما جاءت النِّهاية سريعًا على غير التَّوقع, لتلك الحياة الضَّاجة الصَّاخبة التي ترك من أجلها الأستانة, بحثًا عنها في ربوع مصر وقلب الشَّرق, إذ أصيب "طوسون" إصابة بليغة في ساقه اليمنى, في حادثة مذبحة القلعة الشَّهيرة, والتي دبرها "محمد علي باشا" ليتخلص من أعداءه المماليك؛ فأثناء مطاردة "طوسون" للملوك الوحيد, أمين بك, والَّذي نجح في الفرار من المذبحة بأعجوبة, بأن قفز من أعلى سور القلعة موليًا وجهه قبلة الصَّحراء- في حين سقط "طوسون" من فوق حصانه من ارتفاع شاهق؛ كسرت له ساقه كسرًا بليغًا ألزمه الفراش لأيام وشهور, وما برأ منه إلا بعرج شديد لم يمكنه من الحركة إلا بكل جهد!

بعد تلك الحادثة قرر "طوسون" الاتجاه للزراعة, مهنة الأب التي عافها بالأستانة وهرب منها, وكأنَّها قدر لم يمكنه الفكاك منه. كان "طوسون" يملك أرضًا شاسعة منحه بعضها "محمد علي باشا"؛ تكريمًا لخدماته في بناء الجيش, واشترى هو البعض الآخر من مدخراته الخاصة.

وسرعان ما تعافى "طوسون" من وعكته النَّفسية, وشغل نفسه بمتابعة الأرض والفلاحين, يمر على القريب منها راكبًا "الكارتة", ويضع "النُّظار" على البعيد منها؛ فيأتون بالأخبار والإيراد أولا بأول.

ورغم عرجه الشَّديد, وانتكاسته الكبرى, والانحراف الحاد الَّذي حاد بحياته من العسكرية التي يحب ويعشق إلى الحياة المدنية- بيد أنَّه كان فخورًا للغاية بما حقق من مال وثراء ونفوذ, وأنَّ النَّبتة التي غرسها أبوه في قلبه بتغيير القدر لم تكن عقيم, ولم تنجح أنواء الحياة أن تقصفها أو تخسف بها الأرض, ورغم خروجه من الحياة العسكرية بسبب حادثة ساقه- فقد كبرت النَّبتة وأينعت وأثمرت, وها خلق كُثر من الفلاحين والنُّظار والخدم يأتمرون بأمره ورهن إشارته, وهو ابن الفلاح الفقير الَّذي أماته داء السُّل اللَّعين.

وإمعانًا في الرِّفعة والعلو والإحساس بالذَّات, في مجتمع الأتراك المعتد بنفسه, في بلدٍ يُصنّف أهله من الدَّرجة الثَّانية, قرر "طوسون" أن يبني قصرًا

فخيمًا يبزكل قصور الأتراك في المعمورة, ويكون بديلًا عن البيت الكبيرفي قلب القاهرة الصَّاخبة, والذي يسكنه مع زوجاته الثَّلاث وأبنائه الثلاثة عشر. وقرر بعد تفكير أن تكون "حلوان" مستقرًا لفكرة القصر المختمرة في رأسه, حيث قصور الأتراك المتناثرة, وحيث من الأسلم ألا يبتعد كثيرًا عن ذويه, الذين هم منه وهو منهم, بيد أنَّه أراده منزويًا نوعًا ما عن ضجيج حياته السَّالفة, فلا تذكره طوال الوقت بما فات وانصرم بلا رجعة. وجاء القصر فخمًا مهيبًا, صممه وأشرف على بنائه مهندس إنجليزي يقيم بالقاهرة. صُمم يجمع ما بين سحر الشَّرق ومادية الغرب, الرَّهافة والتَّوحش, فخرجت تحفة معمارية تخلب الألباب.

obeikandl.com